المحاضرة الثّانية: الرّواية العربية- رؤية تاريخيّة وتقنيات سرديّة-

تمهيد:

اختلف الدّارسون في تحديد أوّل رواية عربية رغم اتفاقهم أنّ هذا الفنّ النّثري حديث العهد في الأدب العربي، حيث نشأت الرّواية العربية متأثّرة بشكل مباشر بالرّواية الغربية بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ولا يعني هذا التّأثر أنّ التّراث العربي لم يعرف شكلا سرديا خاصا به، فقد كان التّراث حافلا بإرهاصات قصصية، تمثّلت في حكايات السّمار والسّير الشّعبية وقصص العذريين وأضرابهم، والقصص الدّيني والفلسفي، ولكنها لم ترق إلى أسلوب الرّواية الحديثة باعتبارها فنّا له قواعده وأصوله.

كما نشير إلى الاختلاف في تحديد مرجعيات الرّواية العربية بين القائل" أنّها نتاج مباشر للمثاقفة مع الآخر/الغرب"، وبعضهم "يراها تطوّرا طبيعيا للأشكال النثرية التراثية"، وما يهمّنا في هذا الجدل سوى التّعرف على طبيعة تشكّل الرّواية العربية في مراحلها الأولى ومزاوجتها بين التّراث وتقنيات الرّواية الحديثة، إضافة للجدل حول مرجعيات الرّواية العربية، فقد اختلف مؤرخّو الرّواية حول أولى الرّوايات، فقد ذهب بعضهم لاعتبار رواية زينب (1914م) لمحمد حسين هيكل، أولى الرّوايات العربية ظهورا؛ اقترب المؤلّف فيها من البنية الفنّية للرّواية الغربية التي كانت في أوج ازدهارها آنذاك.

في حين يرى آخرون أنّ نصوصا سردية أخرى ظهرت في أقطار عربية مختلفة، مؤكّدين ظهور الرّواية العربية الأولى في غير الجغرافيا المصرية، أو ظهورها في مصر لكن على يد مبدعين غير هيكل في القرن التاسع عشر، وفيما يلي نقدمّ أهم الروايات التي قدّمها الدّارسون باعتبارها الرائدة في مجال الرواية العربية:

1- نص سردي رواية " حكاية العشاق في الحب والاشتياق" لمحمد بن إبراهيم (الأمير مصطفى) وهو كاتب جزائري ولد سنةم1806 ووالده إبراهيم بن مصطفى باشا، وكتب الرواية سنة(1845م /1266هـ)، وقد قام بتحقيقه وإخراجه للنّور المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله سنة 1977م، حيث وجده في المكتبة الوطنية الجزائر مخطوطا تحت رقم 1923م. فقد منحها عدد كبير من النّقاد قصب السّبق، لكن لم تلق الاهتمام الحقيقي لإخراجها للعلن في دراسة خاصة بها [1]*.

* - وممّن ذكرها نجد الناقد الجزائري عبد القادر شرشار، وزهور كرام في كتابها "الرواية العربية وزمن التكون".

2- رواية "وي.. إذن لست إفرنجي" لخليل الخوري (1837م-1907م) وكتب النّص سنة 1859م، وحقّقه في البداية الناقد المصري "محمد سيد عبد التواب"، ثم أعاد الشّاعر والباحث اللبناني "شربل داغر" تحقيقه في نسخة أخرى سنة2008م، مؤكّدا على ريادة هذه الرّواية العربية.

3- رواية "غابة الحق" لفرانسيس فتح الله مراش (1835-1874)،نشرت الرواية في حلب سوريا سنة 1865م.

4- رواية "الهيام في جنان الشام" سليم البستاني التي نشرها سنة (1870م)، اعتبرها بعض الدّارسين أوّل رواية عربية قلبا وقالبا.

5- رواية "حسن العواقب أو غادة الزهراء" للكاتبة زينب فواز العاملي- سنة 1899م، قدّمتها النّاقدة السّورية بثينة شعبان في كتابها -100 عام من الرّواية النسائية العربية. واعتبرتها أوّل رواية عربية.

6- رواية/نصّ سردي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي، تحدث فيه رفاعة عن رحلة إلى باريس ومن الباحثين من يعتبرها البذور الأولى للرّواية التّعليمية في الأدب العربي الحديث. صدرت أول نسخة عن الكتّاب عام 1834م.

7- رواية "مغامرات تليماك"، "لفتلون"، ترجمها رفاعة الطهطاوي، وسمّاها مواقع الأفلاك في وقائع تليماك سنة (1867م)، تدخل هذه الرّواية في مرحلة التّرجمة التي مرّت بها الرّواية العربية في بداياتها.

8- نص«السّاق على السّاق» لأحمد فارس الشّدياق، وهي شبيهة بالتّراجم الذّاتية تحدّث فيها الشّدياق عن مراحل حياته وأسفاره على أسلوب المقامات، وغايته إبراز مقدرته على استعمال الكلمات الغريبة، و ذكر محاسن النّساء و مثالبهن.

9- قصّة/نص سردي «علم الدين» لعلي مبارك، و يدور موضوعها حول عالم منور الفكر، اسمه «علم الدين»، يلتقي بسياح إنجليزي، ويذهب معه إلى أروبا، فيقيسان العادات والتّقاليد الشّرقية والغربية مرجحين تارة هذا على ذلك، وعلى العكس؛ فالتّأثر بأسلوب المقامة يبدو واضحا في هذه القصّة.

10-نص «حديث عيسي بن هشام» لمحمد إبراهيم المويلحي. ولد سنة 1858م في القاهرة- نشرت حوالي (1905م)، حيث يبدو فيه التّأثير العربي واضحا في العناية بالأسلوب والأحداث التي تحدث للبطل الذي يتّصل بشخصيات متعدّدة، كما أنّ الأثر الغربي أيضا يبدو فيه جليّا من حيث تنويع المناظر، و تسلسل الحكاية، و بعض ملامح التحليل النّفسي.

تلخيص:

ومجمل القول في هذه النّصوص السّردية القريبة من الرّواية في هذه المرحلة أنّها في أغلبها تقليد للقصّة الغربية، يغلب عليها السّرد التّاريخي أو الاجتماعي دون ارتباط بمذهب فنّي واضح، و لم يكن أحد من هؤلاء الكتّاب قاصا متّخصصا، بل كانت القصّة فنُا وعملا ثانويا بالنسبة إليهم، و بالنّسبة إلى المهنة التي يعملونها، وهو العمل الصّحفي؛ فسليم البستاني وفرح أنطوان، ونقولا حدّاد، ويعقوب صروف، و جرجي زيدان... كانوا يصدرون مجلّات شهرية، وكانت القصّة المتسلسلة تمثل جزءا من هذه المجلات، ولهذا فإنّ العمل القصصي في هذه المرحلة ينقصه التّخصص وفنّية العمل، وهو عند هؤلاء تقليد للاتجاهات الغربية، وليس منبعثة انبعاثا حقيقة من البيئة العربية.

لكن رغم وجود روايات عربية قبل ظهور أولى الرّوايات (زينب) 1914م لهيكل ذات البناء الفنّي الحديث إلّا أنّه لا تعتبر بحقّ روايات بالمفهوم الحديث للرّواية وذلك للأسباب التالية:

✓ قربها من السّير الذاتية، حيث عبرت في معظمها على شخصيات من كتبها وهذا يبعدها عن مفهوم الرواية الحديثة التي يستقل فيها الروائي عن راويه وشخصياته ليوهم بموضوعيتها. بعضها مترجم أو مقتبس من روايات غربية أو حتى تراثية لكن على المنوال الغربي وهو ما يضعف من درجة ابداعيتها ويجعلها تبتعد عن الرواية بمفهومها الحديث.

✓ ظهورها منفردة في نسق تاريخي خاص، فمعظم الروايات التي ذكرها الدّارسون ظهرت في أقطار عربية مختلفة وفي نقاط زمنية محددة وخاصة ومنفردة، فلم تظهر معها أو بعدها بقليل نصوص سردية أخرى، ممّا يجعل التّتابع الإبداعي منقطع، فلو كانت بحقّ تباشير ظهور الرواية العربية لاستمرت في بلادها أو على الأقل عند مؤلّفها لكن لا نجد ذلك. ولو قارنا هذه الظاهرة بالإبداع في مصر لوجدنا العكس فمنذ ظهور أولى الروايات حتى التي تم ترجمتها أو اقتباسها نجد التتابع الإبداعي لم يتوقف ولو لمرحلة بل ظل متطورا في خط واحد، مما يعزّز فرضية ظهور أو نص سردي اروائي في مصر.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ بعض الدّارسين أرجعوا ظهور الرواية العربية في حلتها الحديثة إلى مراحل متتالية مرّت بها، يمكن إيجازها فيما يلي:

أ- مرحلة التّقليد والتّعريب (1850م-1914م).

ب مرحلة التّكوين والإبداع (1914م-1939م).

ج- مرحلة التّأصيل والنّضج (1939م- حتى الآن).

أو يمكن تقسيمها إلى مرحلة التّعريب والترجمة ثم الاقتباس وأخيرا النضج والإبداع.